أخبرنا الباشا

محمد علي

4

أفندينا الباشا

(محمد على)

....

د. أحمد حسن صبحى

صبحي، أحمد حسن
أفندينا الباشا محمد علي / أحمد حسن صبحي. طـ١- القاهرة
دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠١٠
٦٠ ص، ١٤× ٢٠ سم
تدمـــــــك: ٩٦٦٧- ٢٨٧ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١- مصر تاريخ العصر الحديث - عصر محمد علي (١٨٠٥ -١٨٤٩م)
٢- أفندينا الباشا (محمد علي)

٩٦٢,٣١

رقم الإيـــداع ١١٤١٢ / ٢٠١٠

الترقيم الدولي 7 -966 -287 -977 -978

دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين - القاهرة

☎ ٢٧٩٤٨٦١٩ - ٢٧٩٥٤٢٢٩

فاكس: ٢٧٩٢٨٩٨٠

لمزيد من المعلومات يرجى زيارة موقعنا على الإنترنت

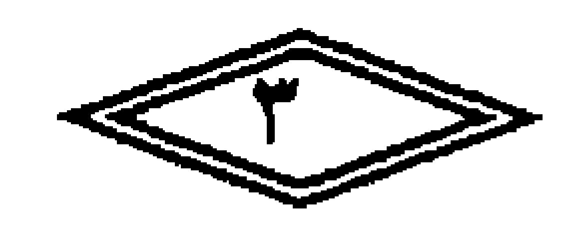
www.sbhegypt.org
info@sbhegypt.org
sbh@link.net

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

ظل محمد على باشا فى نظر المؤرخين على مختلف العصور ومن مختلف الجنسيات، أعداء وأصدقاء، هو باعث النهضة المصرية. والنهضة المصرية هنا ليست القومية المصرية كما قد يتبادر إلى الذهن، فقد كانت الشعبية والقومية المصرية هى التى وضعته فى كرسى حكم مصر. أما النهضة المصرية، فالمقصود بها هى انتقال مصر من مرحلة ولاية عثمانية يتفشى فيها الجهل والتواكل والرضا بأوامر السلطان العثمانى صاحب الأمر والنهى، والخضوع إلى ظلم وجبروت المماليك، إلى مرحلة الدولة ذات الكيان الدولى المتعارف عليه، بما لها من جيش مصرى وصناعة حديثة وتعليم وتنظيم إدارى، إلى آخر النظم الحضارية المتعارف عليها فى تلك الحقبة من الزمان.

لم يجد محمد على باشا كرسى ولاية مصر موسّدا بالحرير، بل جلس فوق الأشواك منذ اليوم الأول لتوليه الحكم، يواجه العواصف بشجاعة نادرة، وصبر غير نافذ، وحنكة سياسية لا يتبعها إلا كل متمرس خبير فى المناورات والتفاوض.

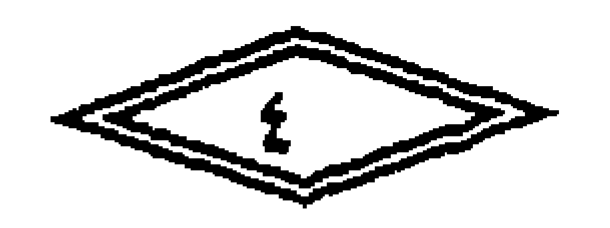


واجه محمد على باشا على مدى سنوات حكمه لمصر، مؤامرات الدولة العثمانية لخلعه وإبعاده عن مصر، ومؤامرات المماليك وحروبهم المستمرة ومؤامرات ودسائس وغزو الإنجليز لمصر عام ١٨٠٧، واستطاع بشجاعته مضرب الأمثال، من التغلب على كل تلك المصاعب واحدة تلو الأخرى.

لقد أصابته " الكوليرا " التى فتكت بالناس فى مصر فى ذلك الزمان، لكن قوة بدنه وروحه مكنته من عبور المحنة الصحية التى لم يفلح معظم من أصيبوا بها من النجاة.

كان شعب مصر، وزعماء شعب مصر على رأسهم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف وراء محمد على باشا فى تأييده، وأمام الوالى الذى اختاروه، عند الشدائد التى واجهت مصر. ظلوا كذلك حتى اختلف العلماء والزعماء المصريون فيما بينهم، حسدا وغيرة من السيد عمر مكرم وشعبيته، ومن رغبتهم فى الحصول على المكاسب والمزايا، فدسوا لبعضهم البعض لدى محمد على باشا، ففقدوا مصداقيتهم أمام الوالى والشعب، فانفرد بالحكم دون استشارتهم، كما تعود أن يفعل من قبل.

لقد أنهك المماليك، مصر وشعبها والوالى. مؤامرات للوصول إلى الحكم وحروب استنزفت طاقاتها وأموالها، واستطاع محمد على ان يتخلص منهم بعد جهد شديد فيما يعرف بمذبحة القلعة، التى أدانه التاريخ لقسوته وتآمره وقتلهم. ونظرا لأن تلك الوسيلة كانت هى الطريقة التى

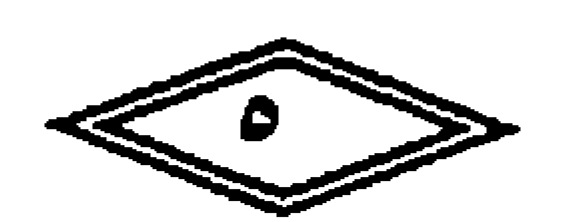


يتبعها حكام ذلك الزمان فى الدولة العثمانية وأقاليمها، فإنها كانت مبرّرة فى نظر بعض المؤرخين، لما عاناه الوالى والشعب فى مصر من ظلم وجبروت المماليك الذين قتلوا وعذبوا مئات الآلاف من المصريين على مدى تسلطهم على حكم مصر.

ويبقى محمد على باشا فى نهاية الأمر، هو الوالى العثمانى الأرناؤوطى الذى استطاعت مصر أن تحيله إلى مصرى صميم، فاستطاع بشعبها أن ينشئوا مصر حديثة، تقف على قدم المساواة مع الدول المتقدمة فى ذلك العصر من الزمان.

ولله الأمر من قبل ومن بعد

* * *



1

وقف الأستاذ فى ساحة القلعة يخاطب طلبته قائلا:

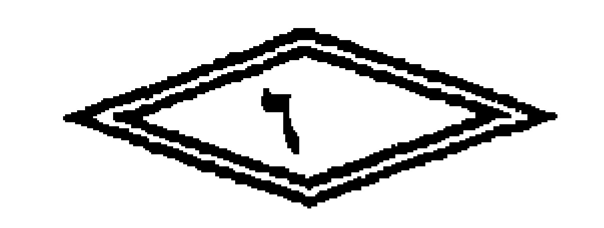
– رأيتم المتحف الحربى، ومسجد محمد على باشا. لم تكن القلعة أيام محمد على باشا بهذا الحجم عندما أقام فيها بعد تعيينه واليا على مصر.

واستطرد المدرس يقول لتلاميذه:

– لقد شهدت هذه القلعة خلال أيام حكم محمد على أحداثا هامة أثرت فى تاريخ مصر كلها. لعلكم لم تنسوا ما قلته لكم عن الأحداث التى مرت بها هذه القلعة خلال أزمة تمسك خورشيد باشا بولايته وبقائه بالقلعة ورفضه النزول على إرادة الشعب المصرى بخلعه وتوليه محمد على باشا.

قال أحد الطلبة مخاطبا أستاذه:

– لم ننس يا أستاذ. إنها فترة من أهم فترات تاريخ مصر فكيف ننسى. نريد ان نعرف كيف استطاع محمد على باشا أن يعبر العقبات التى تحدثت عنها عندما تولى حكم مصر.



قال الأستاذ:

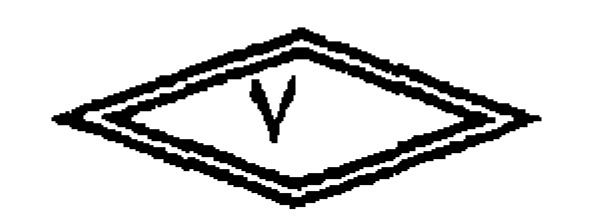
– تلك العقبات التى عبرها محمد على باشا، لم يكن يستطيع التغلب عليها لولا وقوف شعب مصر وزعامته الوطنية خلفه تؤيده وتناصره. سوف تسمعون ما يؤيد هذا الكلام عندما أحدثكم عن " أفندينا الباشا "، اللقب الذى أطلقه المصريون على محمد على باشا من شدة تعلقهم به.

قال الطالب:

– لم يكن مصريا، مثله مثل الولاة العثمانيين يا أستاذ.

وقال الأستاذ:

– كان ألبانيّا، وهم ما أطلق عليهم العثمانيون اسم الأرناؤوط. عندما جاء محمد على إلى مصر كأحد ضباط الجيش العثمانى لمحاربة الفرنسيين، أحس بالمشاعر المصرية فى الحرية ومقاومة الاحتلال. تفاعل معهم فى تلك المشاعر. كان يستطيع أن يعود إلى بلده كالضباط الآخرين العثمانيين، لكنه اختار أرض مصر لكى يقيم بها وأحضر زوجته وأبناءه الثلاثة إلى مصر. لقد اكسبته السنون حب مصر، واندمج فى شعبها وخالطهم. ولسوف تعلمون أن محمد على باشا عندما قرر بناء جيش مصرى حديث، لم يستعن إلا بالمصريين، وعندما أرسل البعثات إلى الدول الأوروبية، لم يختر للفروع الحربية إلا



المصريين الخالصين، فقد كانت مصر تعج بالأصول العثمانية والكردية والأرمن والمغاربة وغيرهم. لم يرسل غير المصريين الفلاحين إلى البعثات لتعلم الفنون الحربية.

هذا هو محمد على باشا. بنى مصر الحديثه، قد يكون الأمر لمجده ولأولاده وأحفاده من بعده. لكن المجد كان يمكن أن يأتيه دون بذل ما بذله لبناء مصر والعمل على استقلالها والحفاظ عليها بعيدا عن متناول ذئاب العالم.

سكت الطلاب. فاستطرد الأستاذ يقول:

- لو أن محمد على شعر بأنه غريب عن أرض مصر، لما ضحى بأولاده فى سبيل حريتها. سوف تسمعون منى قصص بطولات إبراهيم وطوسون وإسماعيل، أولاد محمد على. لماذا نسبق الحوادث؟ دعونى أحدثكم عما فعله ذلك الرجل من أجل مصر، ثم احكموا بأنفسكم هل أفعاله وإنجازاته تبرهن على أنه دخيل، أم أنه أصبح مصريا خالصا؟ هل أبدأ يا أبنائى؟

رد الطلبة جميعا:

- تفضل يا أستاذ.

قال المدرس:

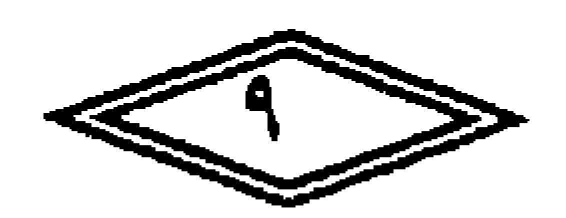
- سوف يطول الحديث. انظروا من القلعة إلى القاهرة. سوف تجدونها تبدو صغيرة للمشاهد، ممتدة على مرمى البصر. كان الحاكم يجلس فى غرفته وينظر إلى

الأرض حتى النيل، ويـــرى البشر صــــغيرا، فيأخذه الزهو والخيلاء فيبطش بالناس وكأنه امتلكهم. تلك هى مأساة النظر من عل للناس.

ابتسم المدرس وقال لطلبته:

- اجلسوا الآن.

* * *



2

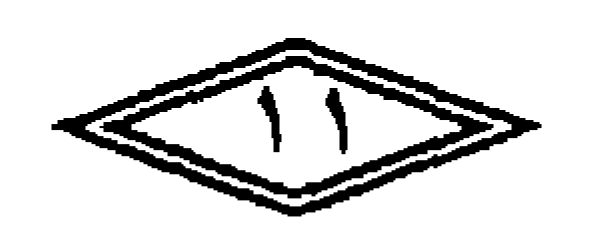
تولى محمد على باشا الحكم فى ١٣ مايو عام ١٨٠٥، وهو على دراية بما ينتظره من مصاعب وعقبات. المماليك ورغبتهم فى القضاء عليه لتولى أمر مصر والاستيلاء عليها من جديد. خزانة حكومية خاوية وشعب فقير أرهقه الغزاة بالضرائب. جنود مرتزقة من الأرناؤوط والإنكشارية والعثمانية، لا ضابط لهم ولا رابط، فى ثورة دائمة، معتادون على السلب والنهب وظلم المصريين. إدارة حكومية فاسدة غير منظمة تطبق أساليب لم تتغير منذ مئات السنين.

كانت بارقة الأمل الوحيدة أمام الرجل، وجود مساندة زعماء مصر، نافذى الكلمة فى البلاد، وعلى رأسهم السيد عمر مكرم نقيب الأشراف. وكان انحياز محمد على لهم ذكاء وفطنة اعتمد على تأييدهم بعد أن أظهر لهم وللمصريين مدى حبه لهذه الأرض ومعارضته لتصرفات الوالى العثمانى والمماليك حيالهم، فاكتسب حبهم وتأييدهم الذى دفعهم لاختياره وتوليته حكم مصر وثورتهم على الوالى خورشيد باشا وقتال جيشه.

عندما تولى محمد على الحكم، كان السيد عمر مكرم وباقى زعماء الشعب على اتصال دائم بالوالى الباشا، يستشير كبيرهم فى كل أمر. كانت المعضلة الأولى هى خلو خزانة الدولة من المال. ووافق مجلس العلماء على فرض ضريبة على الناس وجمع الأموال اللازمة التى طلبها محمد على لتيسير أمور الدولة وتجنب الفتن التى يثيرها الجنود المطالبين برواتبهم.

وبينما يفكر محمد على فى أمور مصر، بعثت انجلترا بمحمد الألفى إلى مصر، وأعلمته بمساعيها لدى العثمانيين لإسناد ولاية مصر إليه. ولم يكن العثمانيون راضين عن محمد على، يريدون إبعاده بشتى الوسائل، وهو الذى أرغم السلطان على تعيينه بعد استعانته بالمصريين. بعثت الأستانة بأسطول عثمانى بقيادة " قبطان باشا " يحمل على ظهره ألفين وخمسمائة جندى لمراقبة الحالة فى مصر.وخولته حكومته حق اتخاذ قرار فى تثبيت محمد على فى الولاية أو خلعه منها.

أصبح قبطان باشا هو ممثل الدولة العثمانية فى مصر. تردد عليه المماليك وراسله محمد الألفى، يظهر له خضوعه للسلطنة العثمانية وأحـقيته فى حكم البلاد. ويتردد على العثمانى، قنصل انجلترا فى رشيد، يطلب منه تعيين عميلهم المملوكى محمد الألفى لولاية مصر، ويهدد بإسم الإنجليز أنهم سوف يرسلون جيشا إلى مصر.



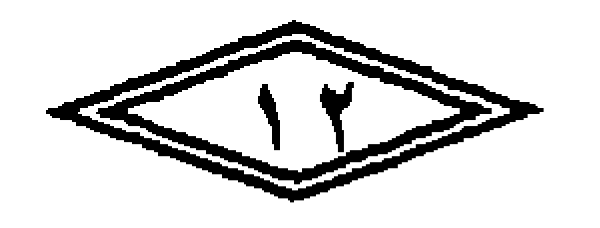
ويراسل محمد على قبطان باشا، مؤكدا أنه سيقاتل المماليك والإنجليز من أجل الحفاظ على أملاك السلطان العثمانى.

كان موقف العلماء المصريين واضحا منذ اللحظة الأولى. حاول المماليك استمالتهم فرفضوا التعاون معهم، بل كتبوا إلى قبطان باشا، يؤيدون وجود محمد على وأن شعب مصر اختاره، لأمانته وإخلاصه.

جاء احتفال مصر بعيد (وفاء النيل) يوم ٥ أغسطس ١٨٠٥، وكان يوما مشهودا فى تاريخ تلك الفترة. كان المماليك قد اعتزموا الهجوم على القاهرة لقتل محمد على والاستيلاء على الحكم، مستغلين الاحتفال فى تنفيذ مخططهم. علم محمد على بخطة المماليك فكلف بعضا من رجاله المخلصين بالتظاهر بمساعدة المماليك، واستدرجوهم إلى القاهرة.

توجه المماليك إلى بيت السيد عمر مكرم لاقناعه بالتعاون معهم فرفض لقاءهم، فتوجهوا إلى بيت الشيخ عبد الله الشرقاوى وذهب عمر مكرم إليهم حيث أعلن بإسم العلماء عدم تقديم أى معونة للمماليك.

خرج المماليك ليبدأوا خطتهم وهم ألف مملوك منتشرين فى القاهرة، وكان رجال محمد على فى انتظارهم. قتل منهم من قتل، وهرب الباقون. لم يتردد محمد على فى مطاردتهم وحربهم حتى تمكن من الاستيلاء على الجيزة



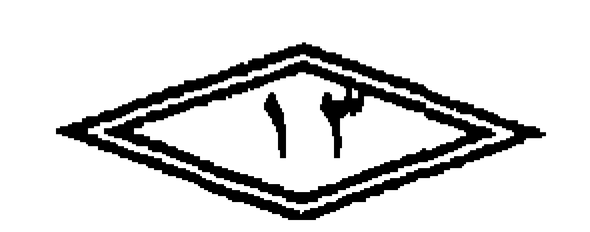
وطرد المماليك منها، الذين رحلوا إلى الصعيد تاركين الجيزة لمحمد على.

كانت تلك المواجهة، سببا كافيا لاقتناع قبطان باشا بكفاءة محمد على، فقام بتثبيت محمد على فى مكانه، ورحل بأسطوله عائدا إلى الأستانه، ومعه الوالى المخلوع خورشيد باشا.

عرف محمد على باشا وتأكد من مكانة علماء مصر ومساندتهم له. اجتمع معهم وطلب منهم الموافقة على فرض إتاوة جديدة لجمع المال لدفع رواتب الجند الأرناؤوط الذين عاثوا فى القاهرة الفساد، وضج الناس من اعتداءاتهم وسلبهم ونهبهم. فقام العلماء وأعيان مصر بجمع الأموال المطلوبة.

كان المماليك يسيطرون على معظم أنحاء الصعيد. كل " بك " منهم يتحكم فى منطقة منها. قرر محمد على باشا، التقدم إلى معقلهم وحربهم، إيمانا منه بأن مصر لن تعيش تحت رحمة تهديدهم المستمر. دفع جزء من رواتب الجنود، وجرّد حملة عسكرية إلى الصعيد لقتال المماليك.

انتصرت انجلترا على فرنسا، فطلبت من موقع القوة، أن يعزل السلطان محمد على وتعيين محمد الألفى للولاية على مصر. وافق طلب الإنجليز بخلع محمد على، هوى السلطان العثمانى الذى يود انتهاز أية فرصة لإبعاده عن مصر.

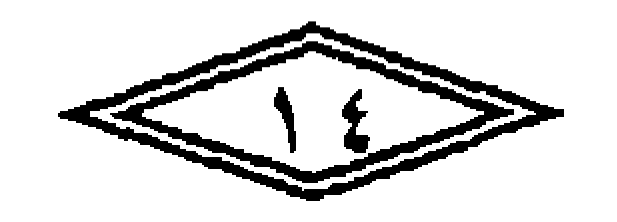


بعث العثمانيون بأسطول بحرى فوقه قوة من ثلاثة آلاف جندى إلى الإسكندرية يوم أول يوليه ١٨٠٦ بقيادة "صالح باشا "، ومعه " موسى باشا " الذى عينه السلطان واليا على مصر بدلا من محمد على الذى نقله واليا على " سالونيك ".

وحمل قائد الأسطول العثمانى معه فرمانا ثانيا، بالعفو عن المماليك ورفع الحظر المفروض عليهم بشراء العبيد من وسط آسيا. كانت تلك الأنباء بشارة سعيدة لمحمد بك الألفى زعيم المماليك، فتحرك بقواته من الفيوم فى اتجاه الإسكندرية لملاقاة العثمانيين، وانتظار وصول الإنجليز الذين وعدوه المساعدة العسكرية لتوليه حكم مصر.

بعث صالح باشا برسول إلى محمد على لإبلاغه بفرمان النقل إلى " سالونيك ".عقد محمد على اجتماعا مع السيد عمر مكرم منفردين. وخرج زعيم شعب مصر من الاجتماع الثنائى ليدعو العلماء والمشايخ والقضاة إلى اجتماع، صدر على أثره بيان منهم موجه إلى " صالح باشا " بالاعتراض على عزل محمد على باشا، وعودة السلطة إلى المماليك الذين يرفض العلماء كفالتهم فى دفع الخراج المطلوب للدولة العثمانية. وأكد زعماء شعب مصر إخلاصهم للسلطان العثمانى فى وجود محمد على باشا.

لم يكن أمام محمد على باشا سوى الدفاع عن مركزه فى مصر، يسانده شعبها إلى أبعد مدى.جمعوا المال، فسدد



محمد على لجنده رواتبهم، وحصّن القلعة، وبعث إلى جيشه فى الصعيد للعودة إلى القاهرة للدفاع عنها ضد التهديد العثمانى المملوكى.

وعلى الجانب الشعبى، دعا السيد عمر مكرم الشعب للوقوف أمام فرض وال جديد يمهد لعودة المماليك، فهب الشعب متطوعا للدفاع عن القاهرة.

وصل محمد بك الألفى بجيشه إلى دمنهور. رفض أهل دمنهور التعاون مع المماليك فحاصر الجيش المملوكى دمنهور، محاولا الاستيلاء عليها لاتخاذها قاعدة لجيشه. لم يستطع المماليك رغم جيشهم الكبير هزيمة أهل دمنهور، الذين دافعوا عن بلدتهم دفاعا باسلا يمثل إحدى صور كفاح شعب مصر ضد أى مغتصب. ظل الألفى وجيشه محاصرا دمنهور، لا يستطع دخولها. وظل شعبها يدافع عن بلده ويصد كل هجوم مملوكى عليهم.

جاء سفر الألفى بجيشه إلى دمنهور، كطعنه فى ظهور باقى أمراء المماليك، فلقد عرفوا بتآمره مع الإنجليز والعثمانيين للاستيلاء وحده على الحكم. بعث زعماء المماليك إلى محمد على باشا، يطلبون التعاون معه ضد محمد بك الألفى. وانتهز محمد على باشا الفرصة، فبعث إلى المماليك يطمئنهم على مركزهم فى الصعيد، مرحبا بالتعاون معهم.

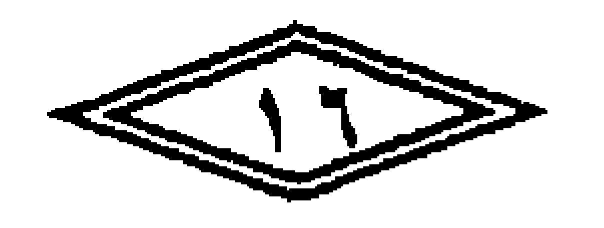


كان من بين صفات محمد على باشا العديدة، الصبر والتخطيط وبعد النظر. رأى أن مهادنة المماليك فى ذلك الوقت هى نعمة أخرى يسوقها القدر له، فكف يد المماليك فى الصعيد عن مناوشته، يعطيه الفرصة لملاقاة العدو فى الشمال. وكان الباشا يعرف طبائع العثمانيين جيدا، فبعث بالرشاوى إلى رجال السلطان فى الأستانة، وبعث بالهدايا والرشاوى إلى صالح باشا وقادة جيشه.

وخدم القدر محمد على باشا مرة أخرى، عندما استعادت فرنسا مكانتها الدولية مع انتصارات نابليون، فضغطت عل السلطان لتثبيت محمد على لتضيّع على الإنجليز فرصة تعيين عميلها محمد بك الألفى حاكما لمصر وبسط النفوذ الإنجليزى على مصر بواسطته.

صار الموقف فى مصر غير واضح. جيش المماليك يحاصر دمنهور دون استطاعته فتحها أو السيطرة عليها، وباقى المماليك بالصعيد فى مهادنة مع محمد على، فبعث قائد الأسطول العثمانى يطلب تعليمات حكومته فى كيفية التصرف، مع إصرار شعب مصر على بقاء الوالى محمد على باشا. جاءته التعليمات بإطلاق يده كيف شاء فى تثبيت الوالى الذى يراه صالحا للولاية فى مصر.

لم يتخاذل أهل دمنهور فى الدفاع عن بلدتهم، واعتمدوا على أنفسهم فى حرب الجيش المملوكى رغم ضعف تسليحهم. ظل الحصار شهورا، لكن المدينة استمرت فى



كفاحها لا تلين لها قناة، يصدون هجمات المماليك المتتالية عليهم.

قام محمد على باشا بإرسال فرقة عسكرية لقتال جيش محمد بك الألفى، فالتقى الجمعان فى " معركة النجيلة "، وانتصر فيها جيش المماليك واستولى على "الرحمانية ". انزعج محمد على من هذه الهزيمة التى لحقت بجيشه أمام المماليك. ولعل تلك الهزيمة أثبتت لمحمد على باشا أنه لا يمكن الاعتماد على جيش من المرتزقة، بل يجب عليه أن ينشئ جيشا مصريا خالصا يلتزم بالنظام والطاعة والبأس فى الحرب والقتال.

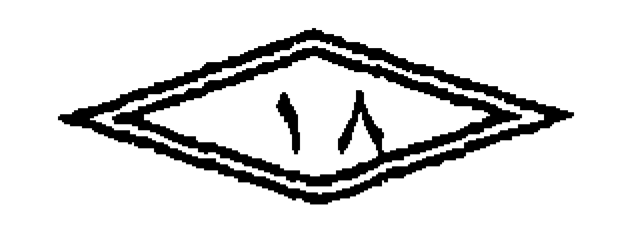
عاد الألفى مزهوًا بانتصاره على جيش محمد على، فحاصر" دمنهور " يحاول الاستيلاء عليها، وزوّده الإنجليز بمدافع كبيرة، قام بتركيبها أمام أسوار "دمنهور "، يضربها بها محاولا اختراق أسوارها، لكن أهل دمنهور، الذين انضم لهم المصريون من كل مكان، صدوا هجوم المماليك مرّة بعد مرّة، حتى أصابوهم باليأس والتذمر من بقائهم فى الصحراء هذه الشهور الطويلة دون طائل، فقرر الألفى العودة إلى الصعيد.

أتت رشاوى محمد على باشا، لقبطان الأسطول العثمانى صالح باشا بالنتيجة المرجوّة، بعد أن تثبّت للعثمانى عجز محمد الألفى فى اقتحام دمنهور، وبلغه انقسام المماليك وإصرار العلماء المصريين على وجود محمد على باشا،

فقرر استمرار الباشا واليا على مصر واتفق معه على أن تدفع مصر أربعة آلاف كيس كخراج يرسل للأستانة وأن يؤخذ " إبراهيم بك "، ابن محمد على إلى الأستانة كرهينة لحين تسديد المبلغ.

جاء المرسوم السلطانى ببقاء محمد على باشا واليا على مصر، (حيث ان الخاصة والعامة راضية بأحكامه وعدله بشهادة العلماء وأشراف الناس). عاد صالح باشا بالأسطول فى أكتوبر ١٨٠٦، وعلى متنه الوالى موسى باشا الذى لم يتسلم عمله فى مصر.

سارع المصريون بجمع الأموال المطلوبة للسلطان، فجمعوا الأكياس الأربعة آلاف وبعثوا بها إلى الأستانة فى نوفمبر ١٨٠٦، فجاء رسول عثمانى بفرمان يقرّ محمد على باشا فى ولايته على مصر، وفرمان ثان بتسفير محمد على للمحمل وإرسال القمح إلى جدة.



3

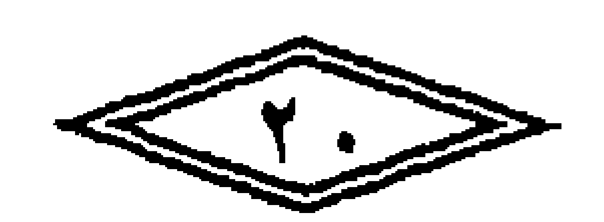
عاد محمد بك الألفى زعيم المماليك بجنده الذين أنهكتهم الصحراء وأذلهم الفشل فى هزيمة شعب دمنهور إلى الصعيد. أصيب الألفى بحالة اكتئاب شديدة رمته صريع المرض. وضربت المماليك فجيعة أخرى بموت البرديسى الزعيم الثانى لهم فى شهر نوفمبر ١٨٠٦، ولم يبق الألفى على قيد الحياة سوى شهرين بعد موت البرديسى، فمات هو الآخر.

وجدها محمد على فرصة عظيمة أن يضرب المماليك بعد موت الألفى وتفكك قواته وقوات البرديسى إلى شراذم متنافرة، فقاد بنفسه الجيش المصرى، وسار به حتى الصعيد يطارد المماليك حتى استطاع السيطرة على أسيوط بعد فرار المماليك منها تاركين سلاحهم، فاتخذها محمد على قاعدة للجيش فى أسيوط. كان محمد على باشا قد أصيب بالكوليرا الفتاكة، فى ذلك العصر، لكنه استطاع بقوة بنيته وعزيمته أن يقهر الوباء وأن يقوم منه صحيحا ليقود جيشه لمحاربة المماليك.

عندما استقر محمد على باشا فى أسيوط، تلقى أنباء نزول الجيش الإنجليزى فى الإسكندرية. فعزم على السير عائدا إلى القاهرة. وصلت خمسة وعشرون سفينة حربية إنجليزية يوم ١٧ مارس ١٨٠٧ إلى الإسكندرية تحمل على متنها ستة آلاف عسكرى انجليزى يقودهم الجنرال " فريزر ". كان من المتفق عليه أن يصل الإنجليز، فيكون الألفى وجيش المماليك فى انتظاره للاستيلاء على الحكم، لكن فشل الألفى فى فتح دمنهور وعودته إلى الصعيد وتأخر ووصل العمارة والجيش الإنجليزى، أفشل تخطيطهم، وزاد فى فشلها موت الألفى زعيم المماليك.

كانت انجلترا قد أعلنت الحرب على الدولة العثمانية بالاتفاق مع الروس، ووصلت السفن الحربية الإنجليزية إلى الدردنيل. لكن أسطول " فريزر "، أبحر إلى مصر للاستيلاء عليها منتهزا تلك الفرصة لكى يحقق أحلامه فى استعمار أرض مصر. جاءوا بسته آلاف جندى وحسب، فى الوقت الذى فشل فيه نابليون فى الاستقرار بمصر ومعه جيش جرّار بلغ الستة والثلاثين ألفا. لكن اتفاق الإنجليز والألفي على ما يبدو هو الذى جعل انجلترا ترسل بقوة صغيرة اعتمادا على وجود المماليك صنائعهم فى مصر.

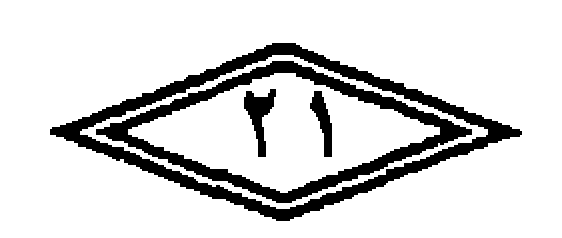
سار جيش فريزر إلى الإسكندرية ليحتلها، وكانت المدينة تابعة مباشرة للسلطان العثمانى، وكأنها بلد ثانية



ليست فى مصر، يُعين محافظها بواسطة السلطان. كان محافظ المدينة عثمانى يدعى أمين أغا. بعث له "فريزر " برشوة مالية على أن يسلم المدينة لجيش الإنجليز بدون حرب. فسلمها العثمانى للإنجليز لقمة سائغة، فدخلوها واحتلوا أرضها، وكأنهم فى نزهة.

عندما اعتزم محمد على باشا العودة من أسيوط لقتال الإنجليز، خشى من عودة هجوم المماليك على القاهرة أثناء انشغاله بالحرب. قام السياسى المحنك محمد على بدعوة المماليك إلى الهدنة على أن يعطيهم الصعيد لحكمها بشرط دفع الخراج، واشترط عليهم الوقوف معه ضد الإنجليز. ووجدها المماليك فرصة لاستعادة أنفاسهم، فقبلوا الشروط.

كان الجيش المصرى فى الصعيد، عندما بلغت القاهرة أنباء نزول " فريزر " واحتلاله الإسكندرية. اجتمع الزعماء برئاسة السيد عمر مكرم وقرروا الاستعداد للقتال دفاعا عن القاهرة. قام الشعب فى القاهرة بتعبئة نفسه استجابة لنداء عمر مكرم، وبدأوا فى حفر الخنادق تجاه شبرا وفى إمبابة، استعدادا لاستقبال الإنجليز. أعدوا المؤن والماء وتطوع المصريون رجالا ونساء فى حفر الخنادق المحيطة بالقاهرة. كان السيد عمر مكرم يسير فى الشوارع يدعو المصريين إلى الجهاد. فعل مثل ما فعله يوم جاء نابليون غازيا، لكنه هذه المرّة، كان أكثر خبرة ولديه



الوقت الكافى لكى ينادى بالاستعداد، ويوفر بالاتفاق مع الأغنياء والتجار، كل ما تحتاجه الحرب من استعدادات.

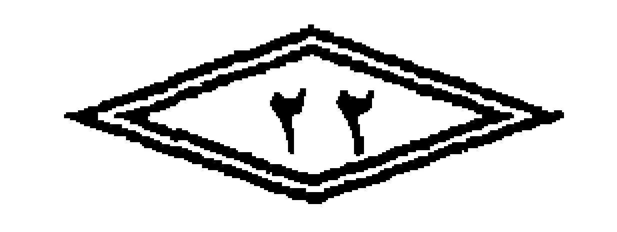
بعث " فريزر" بكتيبة إنجليزية تحت قيادة الجنرال "ويكوب " مكونة من ألفين من الجنود، إلى رشيد لاحتلالها. علم أهل رشيد بتحرك الجيش الإنجليزى قاصدا مدينتهم، فقام محافظ المدينة " على بك السلانكلى " بجمع أهل رشيد وطالبهم بالذود عن بلدهم وأرضهم وعرضهم. قام بإرسال جميع المراكب الموجودة بالشط الغربى لرشيد، إلى الشط الشرقى وقال لهم:

– البحر خلفكم. والعدو أمامكم. فلنندافع عن بلدنا. يختبئ الجنود والأهالى فى البيوت. سوف أخلى القلعة تماما. دعوا الإنجليز يدخلون المدينة ويمشون فى شوارعها مطمئنين. عندما أعطى الإشارة، فلنضربهم جميعا بالرصاص ونقتلهم.

هتف الناس، وأبعدوا المراكب، واختبأوا فى المنازل والجوامع. جاء الجيش الإنجليزى إلى رشيد، ووجد قلعتها خاوية. قال الجنرال " ويكوب " لضابطه:

– لقد فرّوا خوفا. يبدو أننا فى نزهة.

ومشى الجند فى طرقات المدينة حتى اطمأنوا تماما لهدوئها، وأعطى " على بك السلانكلى " الإشارة المتفق عليها، فانهال الرصاص على الإنجليز، وقتل منهم ١٧٠



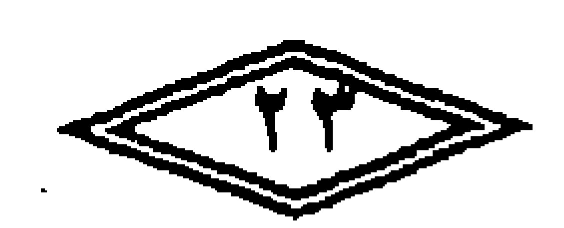
جندى كان أولهم الجنرال " ويكوب "، وجرح ٢٥٠ عسكرى وتم أسر ١٢٠ جندى، وفرّ الإنجليز عدوا، عائدين إلى الإسكندرية، بعد قتال مرير مع أهل رشيد البواسل.

عندما سمعت الحامية العثمانية الموجودة فى دمنهور، أنباء نزول الإنجليز بالإسكندرية، فرّوا من أماكنهم، وتركوا البلدة لأهلها، واختفوا وسط مدن الدلتا متفرقين.

أحس فريزر بالإهانة، بعد هزيمة جيشه النكراء أمام شعب رشيد، فجرّد حملة قوامها أربعة آلاف جندى بمدافعهم بقيادة الجنرال " سيتورات " لاحتلال رشيد. بدأ الإنجليز زحفهم الثانى يوم ٣ إبريل ١٨٠٧، وقرر اتباع خطة جديدة، باحتلال المدن والقرى المشرفة على رشيد لتطويق المدينة. احتل الجيش الإنجليزى "الحمّاد " ثم احتلوا " أبو مندور " وقاموا بتركيب مدافعهم الثقيلة على تلالها المشرفة على مدينة رشيد. وبدأت المدافع الإنجليزية فى ضرب رشيد ضربا مكثفا لإحداث أكبر قدر من التخريب والقتل فى المدينة.

لم تلن عزيمة أهل رشيد رغم التخريب الذى أصاب بلدتهم، ولا وهن كفاحهم، والقتلى يتساقطون أمامهم نتيجة الضرب المدفعى الإنجليزى. استمروا فى المقاومة ورمى الإنجليز بما لديهم من سلاح قليل.

وصل محمد على إلى القاهرة يوم ١٢ إبريل، واجتمع بالزعماء لمعرفة الموقف المصرى، وعاين ما يقومون به

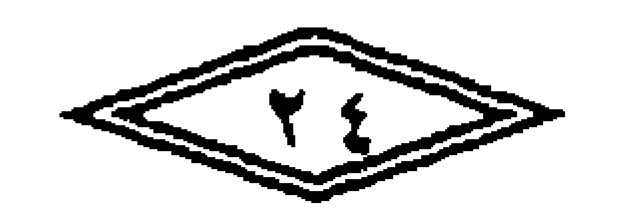


من عمل فى الخنادق فأعطى إرشاداته بخبرته العسكرية للقائمين بتحصين القاهرة. أمر جيشه المكون من ٤٠٠٠ جندى مشاة وألف وخمسمائة فارس، بالتحرك فى فرقتين شرق وغرب النيل بحيث يلتقيا فى "الحماد " والهجوم على الإنجليز هناك.

عبرت الفرقة من شرق النيل إلى غربه فجر يوم ٢١ إبريل ١٨٠٧، وهجمت الفرقتان معا على الجيش الإنجليزى ففرّقت صفوفه بعد أن سقط منهم ٤١٦ قتيل وتم أسر ٤٠٠ أسير، بينما هرب الباقون فزعا عائدين إلى الإسكندرية حيث جنرالهم " فريزر ". بعث قائد الجيش المصرى بالأسرى الإنجليز إلى القاهرة.

تحرك محمد على باشا من القاهرة فى طريقه إلى الإسكندرية لطرد الجيش الإنجليزى منها،فقام" فريزر " بإصدار أوامره بقطع سد " أبو قير " مرة ثالثة لكى تحيط المياه بالإسكندرية فتعرقل دخول أى قوات إليها. وهى المرّة الثانية التى يقطع فيها الإنجليز السد، دون النظر إلى ما يجرّه دخول المياه المالحة إلى النيل ومنع مياه الشرب عن أهل الإسكندرية، ودون النظر إلى ما تخربه المياه المالحة من أراضى زراعية.

كان موقف " فريزر" حرجا بالإسكندرية، وكانت حالة إنجلترا غير مطمئنة فى أوروبا بعد عقد الصلح بين فرنسا



وروسيا، وتواصل انتصارات نابليون، الأمر الذى دعا إنجلترا إلى طلب عقد اتفاقية للسلام مع محمد على باشا على أساس الرحيل عن مصر شريطة أخذهم الأسرى الذى احتفظ بهم المصريون. دارت المفاوضات بين الجانبين فى دمنهور، ووقعت الاتفاقية، ورحل الإنجليز عن الإسكندرية يوم ١٩ سبتمبر ١٨٠٧.

دخل محمد على باشا مدينة الإسكندرية لأول مرة، وضمها إلى مصر فأصبحت منذ ذلك اليوم تحت سيطرة والى مصر. توجه محمد على إلى رشيد لزيارة المدينة الباسلة، ثم عاد منها إلى القاهرة. توجس الناس شرّا من رحلة عودة الباشا. فعندما أبحرت به السفينة من رشيد، غرقت فى النيل، وقفز منها محمد على باشا وعام حتى الشاطئ. أتوا له بجواد أصيل ليواصل به رحلته إلى القاهرة، فكبا الجواد وسقط الباشا من فوقه، لكنه قام واستكمل رحلته إلى القاهرة.

أقيمت الاحتفالات فى القاهرة لاستقبال محمد على والجيش، احتفالا بالنصر المؤزّر الذى حازه الجيش المصرى ضد الإنجليز، واحتفال الشعب بالخلاص من الاحتلال الإنجليزى.

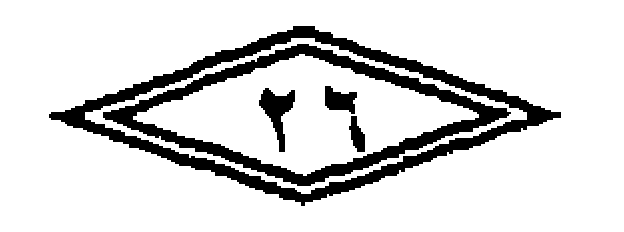
بعث السلطان بهداياه إلى محمد على باشا، وإلى قواد جيشه، وأعاد الابن الأكبر لمحمد على باشا بعد أن خلع



عليه رتبة " باشا ". عاد إبراهيم باشا إلى مصر، الذى بقى شهورا فى الأستانة رهينا لدى السلطان، لضمان طاعة أبيه محمد على باشا، ودفعه الخراج.

كان انتصار محمد على باشا على الانجليز، وإن كان شعب رشيد له الدور الأعظم فى ذلك الانتصار، إلا أن النصر الحاسم على الإنجليز كان على يد جيشه، داعيا لأن يطالبه السلطان بتوجيه جيشه إلى الحجاز،للقضاء على الحركة الوهابية التى قامت فى نجد، والتى فشل الجيش العثمانى فى قمعها. ظلت الدولة العثمانية تطالب محمد على باشا بإرسال الجيش إلى الحجاز منذ عام ١٨٠٧، ثم تلح عليه عام ١٨٠٨ وعام ١٩٠٩، ومحمد على باشا يتنصل من تلك المهمة بسبب حروبه مع المماليك ومناوراته معهم، والمشاكل الداخلية التى يعانى منها.

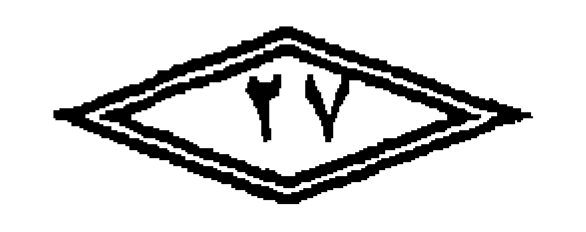
ضم جيش محمد على باشا، بعض الجند من " الدلاة " العاصين الذين بقوا فى مصر، ومعهم جنود من الأرناؤوط، وآخرين من الانكشاريين. وكلهم ميالون للعنف والثورة، يثورون كل حين مطالبين برواتبهم. كان " الباشا " يفرض الأتاوات على شعب مصر ليتمكن من تمويل الحروب، ودفع رواتب الجند الثائرين. ولقد أوجدت الضرائب التى فرضها محمد على نوعا من التذمر بين الشعب، وعدم رضاء زعماء الشعب وعلى رأسهم عمر مكرم. فلم يعد محمد على يستشيره قبل فرض الضرائب.



كان لتفكك أواصر الإخلاص بين العلماء والمشايخ، ذلك الإخلاص وتلك المودة التى جمعتهم إبان الشدائد، أثره فى الحركة القومية المصرية. فقد خارت قواها بسبب التكالب على المال والاستفادة بالمراكز، ومن جانب هام، حسد السيد عمر مكرم نقيب الأشراف على ما يتمتع به من حب الشعب والوالى، وكأنه هو الحاكم الفعلى للشعب.

بدأ بعض العلماء فى الوقيعة بين عمر مكرم ومحمد على باشا، ينقلون للوالى رفض عمر مكرم لقرارات محمد على، ويحدثون نقيب الأشراف عن غضب الوالى من المعارضة. حاول محمد على باشا استرضاء عمر مكرم بشتى الوسائل، لكن زعيم الشعب أبى أن يذهب إليه أو يحاوره، رافعا عصا العصيان على قرارات الوالى الخاصة بالضرائب، كانت فئات الشعب تتردد على بيت عمر مكرم تشكو الفاقة والعوز اللذين يعيشون فيهما من جرّاء الضرائب.

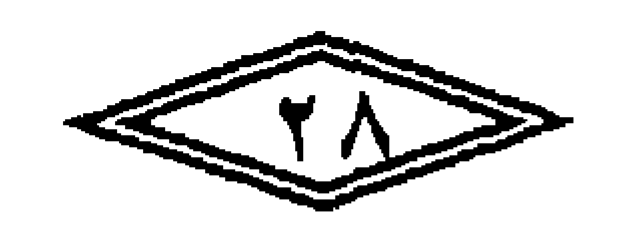
ولم يجد محمد على حلا مع عمر مكرم سوى نفيه إلى دمياط عام ١٨٠٩ بعد أن خشى الوالى من استمرار وجوده بالقاهرة وتكالب الشعب على زيارته. أطاع عمر مكرم أمر النفى إلى دمياط ثم إلى طنطا بعد ذلك، وقام محمد على بتعيين الشيخ محمد السادات نقيبا للأشراف. طلب حفيد عمر مكرم من الوالى أن يسمح لجده بالحج بعد انتصار محمد على باشا على الوهابيين، فوافق الوالى وأكرم سفره،



وطلب منه بعد الحج أن يعود إلى بيته فى القاهرة. وعندما عاد السيد عمر مكرم بعد أداء الفريضة، تزاحم الشعب حول بيته، يهتفون له، لكنه عزف عن لقائهم لئلا يثير حفيظة محمد على. وخشى الوالى من هذا التزاحم على بيت عمر مكرم زعيم الشعب، فنفاه مرة ثانية إلى طنطا.

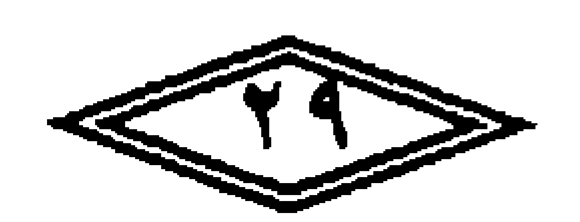
لم يهنأ محمد على باشا بفترة استقرار كى يلتقط فيها أنفاسه وينصرف إلى تنفيذ ما يفكر فيه من إصلاحات داخل مصر، كان هدوء المماليك ظاهريا، يحكمون الصعيد ويمتنعون عن سداد الخراج المتفق عليه مع محمد على باشا، والرجل يفكر فى كيفية التخلص من تلك الفئة التى تمثل شوكة فى ظهره، وتقسم مصر إلى قسمين.

ومن ناحية أخرى، كان الجنود المرتزقة من" الدلاة " و" الأرناؤوط " و" الانكشارية " يسببون المتاعب لمحمد على وللمصريين. حاول محمد على التخلص منهم على دفعات، بإرسال البعض منهم إلى الحجاز والسودان لإبعادهم عن مصر. ثار الجند وتجمعوا فى ميدان الأزبكية حيث دار محمد على يطالبون برواتبهم، وخشى محمد على من اندلاع ثورة جديدة فى مصر نتيجة ذلك التمرد والتذمر من المرتزقة، فانتقل هو وحاشيته سرّا إلى القلعة وقرر الإقامة فيها. وحدث ما توقعه الباشا المحنك، فقد أحرق المرتزقة قصر الوالى.



استطاع محمد على باشا، أن يعتقل قائد " الدلاة " ويبعده عن مصر. أرسله إلى الأستانة فهدأت ثورة المرتزقة إلى حين.

* * *

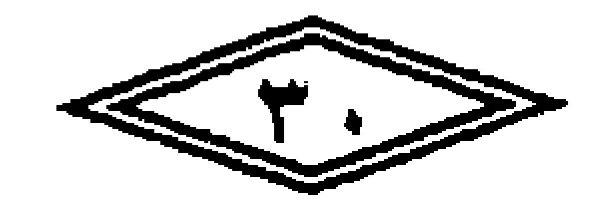


4

طلب محمد على باشا من زعماء المماليك الإقامة بالقاهرة. أكرم وفادة شاهين الألفى، خليفة محمد الألفى وخصص له قصرا يقيم به، مما شجع أمراء المماليك على أن يحذوا حذوه. لكن إبراهيم بك - على كبر سنه - رفض الحضور لعدم اطمئنانه لنوايا محمد على. كانت الصعيد هادئة، لكن المماليك كانوا يمتنعون عن دفع الخراج المتفق عليه مع الوالى بعد صلح أسيوط، ويماطلون فى دفعه.

مع مماطلة المماليك فى الدفع، قام محمد على بقيادة جيشه فى سبتمبر ١٨٠٩، متجها إلى الصعيد. وأخطرهم فى أسيوط أن على كل رؤساء المماليك ورؤساء جندهم الإقامة فى القاهرة والانتظام فى دفع الخراج المقرر. اتفق مع بعض رؤساء المماليك على إقطاعهم مناطق فى الفيوم والبحيرة لإدارتها بمعرفة المماليك شريطة دفع الخراج.

ظل إبراهيم بك كبير المماليك على غير الطاعة لمحمد على، يؤلب المماليك على نقــض اتفاقهم مع البــاشا، حتى

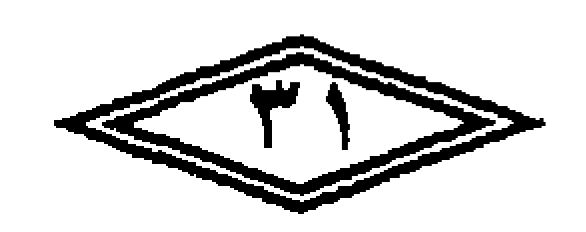


أفلح فى سعيه. بدأ المماليك يهربون من القاهرة ويعاودون التجمع فى الصعيد لقتال محمد على.

لم يقف محمد على ينتظر تحرك أعدائه، بل هجم بجيشه على تجمعات المماليك، فاستولى على إقليم الفيوم والمدن المؤدية إليها من أسيوط، وفرّ المماليك إلى ما بعد أسوان، وطلبوا التصالح مع محمد على باشا، طالبين الأمان من الوالى على أن يعودوا إلى القاهرة طبقا لاتفاقهم السابق. قبل محمد على ما عرضه عليه المماليك، ثم عين ابن المملوك إبراهيم بك حاكما لإقليم الصعيد، استرضاء لكبير المماليك.

كما أن إبراهيم بك لم يكن يطمئن لنوايا محمد على تجاههم، كان محمد على هو الآخر يتوجس خيفة من المماليك ودسائسهم وخيانتهم ونقضهم للعهود. كان ذهن محمد على مشغولا بعدة أمور، لكن وجود المماليك بسلاحهم فى مصر،كان المسيطر على ذلك التفكير، لا يستطيع أن يتصرف بحريته وهو يخشى وجود المماليك.

جاء أمر السلطان مغلظا فى ١٨١٠ إلى محمد على بضرورة إرسال الجيش إلى الحجاز لإخماد ثورة الوهابيين الذين استفحل أمرهم وقطعوا طـرق الحج، مما أصاب هيبة الدولة العثمانية بضربة شديدة. ولم يجد محمد على بدا من الطاعة فى تلك المرة، فأمر بإعداد الحملة المصرية للسفر إلى الحجاز للقضاء على الوهابيين.

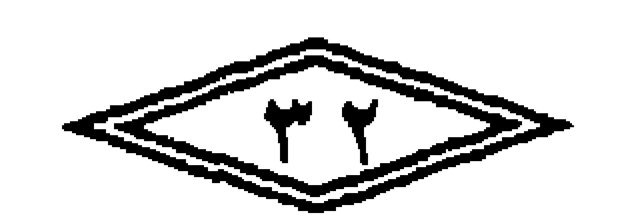


أصبح فكر محمد على مشغولا بالمماليك، فلقد عاشت مصر فى تلك الفترة، تعد معدات الحملة العسكرية، التى اقتضت بناء السفن المخصصة لنقل الجنود إلى ميناء " ينبع ". أنشأ ترسانة لبناء السفن فى بولاق، ينقل الأخشاب والمعدات على الجمال من القاهرة حتى السويس ليتم تجميعها وإعدادها للإبحار.

خشى محمد على باشا، انتهاز خروج جيش مصر إلى الحجاز، فيعود المماليك إلى مؤامراتهم والانقضاض على القاهرة التى ستخلو من جنودها. كان المماليك قد استكان رؤسائهم فى القاهرة، وأغرقهم محمد على فى الهدايا والمال والبذخ والترف، فعاشوا فى الاستمتاع بملذات الحياة.

قام محمد على بتعيين ابنه طوسون باشا، قائدا للجيش المصرى المسافر إلى الحجاز. وأمـر بإقـامة الزينات والأفراح يوم أول مارس ١٩١١ لوداع موكب طوسون باشا المسافر من القلعة حتى السويس. دعا أعيان مصر وكبراءها، وقادة المماليك ورؤساء جندهم إلى حفل القلعة لوداع الجيش المسافر.

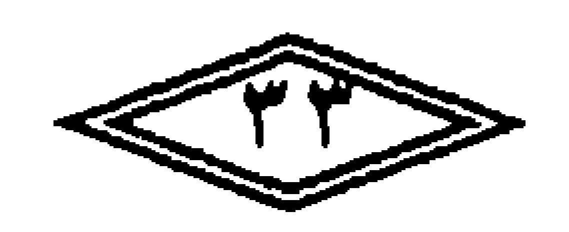
كان الخروج من القلعة يقتضى المرور من طريق صخرى ضيق متعرج منحدر. بدأ الموكب الراكب، بسير طوسون باشا ووراءه قادة الجيش، ثم أمراء المماليك فى زينتهم وسيوفهم اللامعة، ثم كتيبة من الجيش المصرى.



عندما عبر طوسون باشا وحاشيته باب القلعة، أغلق الباب، وانهال الرصاص على المماليك من كل جانب حتى تم القضاء على قادة المماليك. سقط ٤٧٠ مملوك قتيلا دفعة واحدة فيما عرف بمذبحة القلعة.

جرى جنود محمد على مسرعين، وانتشروا فى أحياء القاهرة، لقتل بعض المماليك الذين لم يحضروا الاحتفال. استطاع بعض المماليك الهرب، مسرعين إلى الصعيد الأعلى، تاركين أملاكهم وثرواتهم وفارين بحياتهم وحسب. كانت تلك المذبحة هى نهاية المماليك فى مصر، إذ لم تقم لهم قائمة بعد ذلك، واختفوا متنكرين وهاجر الكثير منهم بعيدا عن مصر.

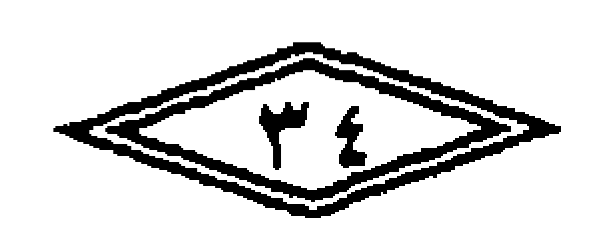
جاءت مذبحة القلعة، بنتيجة إيجابية بالنسبة لمحمدعلى بالتخلص نهائيا من المماليك، وتخلصه من الشوكة التى تحرمه النوم خوفا وقلقا. وجاءت بنتيجة سلبية على شعب مصر. فلقد أيقن الشعب المصرى مدى القسوة التى تكمن فى قلب محمد على باشا والتى تجعله قادرا على التخلص من أعدائه بتلك الوحشية. ولم يكن الشعب فى القاهرة قد نسى نفى زعيمه السيد عمر مكرم إلى دمياط، لكن الفرق كان كبيرا بين طريقتى إبعاد محمد على لخصومه. كان لاستكانة الشعب بعد مذبحة القلعة آثارها المستقبلية فى طريق ديكتاتورية محمد على فى حكم مصر.



دخل محمد على باشا حرب الوهابيين، وفى رأسه عدة محاور فكرية تداعب خياله منذ عدة سنوات ولم يكن قادرا على تحقيقها. فرض الضرائب دون معارضة الزعماء بحجة جمع الأموال لتمويل الحملة لتحرير الحرمين الشرفين وإعادة الحج مرة أخرى، وهو نداء يثير الحميّة الدينية بين المسلمين فى مصر. جمع محمد على أموالا كان يطمع فيها لإعداد الحملة العسكرية ومن بينها بناء السفن. وقد أفرزت تلك النتيجة، بناء ترسانات مصرية يعتمد عليها، وتشغيل الكثير من العمال الذين عاشوا سنوات طويلة فى بطالة.

ساعدت العمالة المتزايدة فى معامل ومصانع محمد على باشا، على خفض نسبة البطالة إلى حد كبير فى مصر، واستطاع الوالى، لأول مرّة فى تاريخ القاهرة أن يحقق الأمان فى الطرقات. عين جنودا ساهرة فى الطرق لمنع السرقات والاعتداءات، وحتم على كل سائر فى الليل أن يحمل معه مصباحا ينير وجهه. منع الجنود التسّول فى الطرقات. جمعوا المتسولين من الشوارع ومنحوهم عملا. وهى نتيجة اجتماعية هامة، شهدتها مصر إبان تلك الفترة.

أراد محمد على باشا بتجريد حملة الحجاز، إقناع السلطان العثمانى بطاعة والى مصر للقضاء على سوء الظن الذى سيطر على العلاقات العثمانية المصرية منذ تولى " الباشا " الولاية. كان محمد على باشا ولاشك، يفكر



فى استقلال مصر تحت حكمه. انتهز فرصة حملة الحجاز لكى يبدأ فى إعداد جيش مصرى يعتمد عليه، والتخلص من الجنود المرتزقة ذوى الهوية العثمانية.

وكان فكر محمد على باشا وتخطيطه لتحقيق فكرة الاستقلال بمصر، مركزا على ضرورة النجاح فيما فشل فيه العثمانيون، بالقضاء على الثورة الوهابية التى أصبحت تشمل كل الحجاز واليمن والشـــام والعـــراق، وشكلت خطرا داهما على العثمانيين فى الأناضول بعد أن وصلوا إلى حدودها.

عين الوالى الباشا، ابنه " أحمد طوسون باشا " قائد الجيش المكون من ٦٠٠٠ من المشاة وألفين من الفرسان، وأوصى محمد على باشا ابنه، بأن لا يفعل أمرا إلا بعد مشاورة السيد محمد المحروقى كبير تجار مصر، الذى سافر مع الحملة. كان عمر طوسون باشا عند سفره لا يزيد عن سبع عشرة سنه.

حملت السفن المشاه من السويس حتى ميناء " ينبع" بينما سار طوسون باشا والفرسان برّا حتى العقبة ثم "ينبع " فيلتقوا بالمشاة ثم يزحف الجيش. وصلت الحملة البحرية إلى " ينبع " فاحتلتها دون مقاومة. وسار الجيش كله تجاه " المدينة " واشتبك مع الوهابيين فى "بدر" واستولى طوسون عليها، فتراجع الوهابيون إلى "وادى الصفراء "، فتحصنوا فيه وأقاموا الاستعدادات لمواجهة الجيش المصرى. جرت

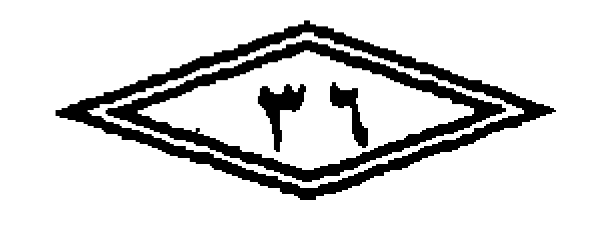


معركة شرسة فى ذلك الوادى، فقد فيه جيش مصر ستمائة قتيل بينما فرّ معظم الجنود الأرناؤوط من المعركة ورجعوا إلى مصر دون إذن طوسون.

عاد طوسون باشا إلى " ينبع " وأخبر أباه بما حدث وهروب الأرناؤوط.فأمده محمد على بالمال والهدايا، طالبا منه رشوة القبائل بالمنطقة، وعندما وصله المدد، زحف مرة أخرى فاستولى على الوادى، ثم سار الجيش حتى " المدينة " واستطاع طوسون هزيمة الوهابيين وفتحوا المدينة المنورة، فى أول انتصار هام على الحركة الوهابية.

ورجع طوسون باشا إلى " ينبع " ثم استقل وجيشه السفن حتى جدة فاحتلها، وسار منها إلى مكة فدخلها دخول الظافر، وعاونه شريفه مكة فى ذلك النصر، ثم زحف طوسون إلى " الطائف " فاحتلها فى آخر يناير ١٨١٣.

دارت الدوائر على الجيش المصرى وقاد الأمير (سعود بن عبد العزبز) أمير الوهابيين جيوشه وهجم على الجيش المصرى وكبده خسائر فادحة. تلقى محمد على باشا تلك الأنباء بجلد وصبر، وقرر السفر بنفسه لقيادة الحرب ضد الوهابيين. حشد الوالى ما فى وسعه من جند وجمع الأموال وسار محمد على حتى السويس ثم أبحر إلى جدة، فشدد وصوله عزيمة الجيش. ذهب إلى مكة حيث أدى فريضة الحج فى سبتمبر ١٨١٣، ثم اعتقل شريف مكة لارتيابه فى



إخلاصه وبعث به إلى مصر وعين ابن أخيه الشريف يحيى بدلا عنه.

اشتدت الحرب مع الوهابيين، فطلب محمد على باشا المدد من مصر، فجمع وكيل الوالى سبعة آلاف كيس، كما جمع سبعة آلاف مقاتل من مختلف طبقات المجتمع المصرى تطوعوا للقتال كجنود. عندما وصل المدد إلى محمد على، قام بتدريب المتطوعين فى جدة، باعتبارهم نواة الجيش المصرى الذى كان محمد على يطمع فى تكوينه. مات سعود بن عبد العزيز خلال تلك الأثناء وتولى ابنه عبد الله بن سعود، لم يكن كأبيه شجاعا مقداما، بل شديد التردد لا يميل إلى الحرب والقتال.

استطاع محمد على باشا بالحيلة والذكاء ان يرفع حصار الوهابيين " للطائف "، وينقذ ابنه طوسون المحاصر فيها. وبعد انتهاء مراسم الحج، تجددت الحرب وقاد محمد على باشا جيشه فاحتل المدن المختلفة حول الطائف وجده والمدينة. أصدر " الباشا " أوامره لابنه طوسون بالاستعداد للزحف على نجد والقضاء على الوهابيين.

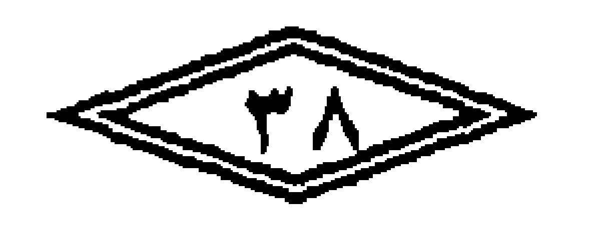
بينما يستعد طوسون لتنفيذ أوامر أبيه، بعث الأمير (عبد الله بن سعود) برسول يعرض الصلح والطاعة. أجاب طوسون بأنه يمنح الوهابيين هدنة عشرين يوما حتى يراجع والده. أوقفت الحرب خلال الهدنة. جاء طوسون فى تلك الأثناء رسول من محمد على باشا بأنه اضطر



للعودة إلى مصر لمواجهة مؤامرة ضده. وصل محمد على إلى القاهرة فى ٢٣ يونيه ١٨١٥، بعد أن قاد جيشه فى الحجاز لنحو سنتين فى حروب مستمرة مع الوهابيين دون إحراز نصر حاسم عليهم. وكان وصول محمد على إلى مصر، بعد أن قام وكيله "كتخذا بك " باعتقال" لطيف باشا " ومحاكمته وإعدامه وكان " لطيف أغا " هو أمين خزانة محمد على، أرسله إلى الأستانة لإبلاغ السلطان بنبأ استرداد المدينة المنورة من الوهابيين، فأنعم عليه السلطان برتبة الباشوية، فعاد " لطيف باشا " إلى مصر وقد ملأه الكبر والغرور، وخاصة بعد أن وعدوه فى الأستانة بتوليته على مصر بعد التخلص من محمد على. أحس " كتخذا بك " بما يدبره لطيف باشا من مؤامرة للخلاص من محمد على، فبعث للوالى فى جدة بتلك الأنباء، ثم تولى إلقاء القبض عليه ومحاكمته وإعدامه لخيانته.

قبل طوسون باشا الصلح مع الوهابيين واشترط أن تحتل الجيوش المصرية (الدرعية) معقل الوهابية، وأن يرد الوهابين الجواهر التى أخذوها من الحجرة النبوية، وأن يكون عبد الله بن سعود رهن أوامر طوسون، وألا يتم اعتماد هذا الصلح إلا بعد عرضه على محمد على باشا وإقراره له.

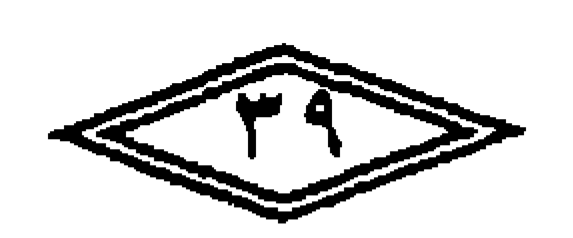
بعث عبد الله بن سعود بوفد إلى القاهرة لعرض الصلح على محمد على باشا. تشدد الوالى فى الشروط بهدف



رفض الوهابيين لها. كان محمد على باشا يرى فى استمرار الوهابيين فى الحجاز يشكل خطرا دائما على أحلامه. أراد منهم أن يرفضوا شروطه ليحاربهم ويقضى عليهم. رفض الوهابيون الشروط، فأنذرهم محمد على باشا بحرب لا قبل لهم بها، وتأهب عبد الله بن سعود للحرب والقتال.

عاد طوسون باشا إلى مصر فى نوفمبر ١٨١٥، وسقط صريعا للأمراض حتى وافته المنيّة فى سبتمبر ١٨١٦ وهو الذى لم يتجاوز العشرين من عمره. كانت وفاته ضربه شديدة على والى مصر محمد على باشا، الذى لم يفق من ضربات قدره المتتالية فوق رأسه، لكنه وحزن الدنيا كله فوق رأسه، لم يضعف أو يستسلم.

ظل محمد على باشا ستة شهور يعد للحملة التى قرر إرسالها تحت قيادة ابنه الأكبر إبراهيم باشا فى سبتمبر ١٨١٦، فكان أول ما فعله إبراهيم باشا عند وصوله إلى أسيوط فى طريقه إلى القصير، أن قام بتجنيد فرقة من ألفين من الفلاحين المصريين لينضموا إلى الحملة. سار من ينبع إلى المدينة فأدى فروض الزيارة النبوية، ثم بدأ الزحف والقتال، واستولى على " الخبراء " ثم "عنيزة "، وبدأت المدن تستسلم لإبراهيم باشا واحدة بعد الأخرى حتى فتح " الدرعية " فى سبتمبر ١٨١٨، وقضى على الحركة الوهابية بعد سبع سنوات من الحروب المتصلة.



انشغل إبراهيم باشا فى الحرب الوهابية للقضاء على نفوذهم، فانقطعت أخباره عن والده فى مصر، الذى أحس بالقلق على مصير ابنه والجيش المصرى إلى الدرجة التى أقعده فيها المرض بعينيه حزنا على ابنه، وخوفا على مصيره. ولما جاءه خبر الاستيلاء على "الدرعية " والقضاء على الوهابيين، احتفلت مصر على مدى سبعة أيام كاملة بهذا النصر، وتعافى محمد على باشا من مرضه.

عاد إبراهيم باشا إلى القاهرة فى ديسمبر ١٨١٩، بعد أن نفذّ ما أمره به أبوه من هدم حصون " الدرعية " وحرق المدينة التى اتخذها الوهابيون عاصمة لهم. استقبل المصريون إبراهيم باشا استقبالا لا مثيل له بعد ذلك الانتصار، وقام إليه الوالى يحتضنه فخرا بابنه وقائد جيشه. كان السلطان العثمانى قد أصدر فرمانا بتعيين إبراهيم باشا واليا على جدة، فأصبحت الجزيرة العربية تحت الحكم الفعلى المصرى.

***

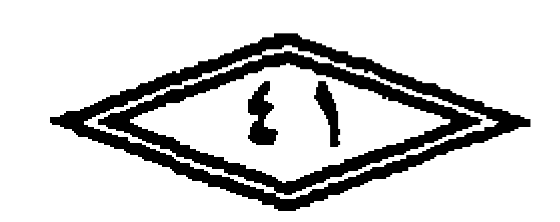


5

عاد جيش مصر بعد حرب الوهابيين مزهوا بالنصر الذى أحرزه بعد سنوات من الحرب فى الصحراء مع قلة الزاد والماء وحرارة الجو. واكتسبت مصر من تلك الحروب شيئين هامين. الأول هو التخلص من كثير من الجنود المرتزقة والثانى والأهم هو اكتساب الجيش لعناصر مصرية من الجنود والضباط الذين تمرسوا على الحرب فى أقسى الظروف المعيشية، لكنهم حازوا النصر فى نهاية الأمر.

وعن الخسائر التى أفقدتها الحروب لمصر، فأعظمها معنوية، إذا ما تجاهلنا عدد القتلى من جنود مصر، وما تكبدته من نفقات باهظة لتمويل تلك الحروب. اكتسب محمد على باشا رضاء السلطان الظاهرى، وتآمره الداخلى للخلاص منه.

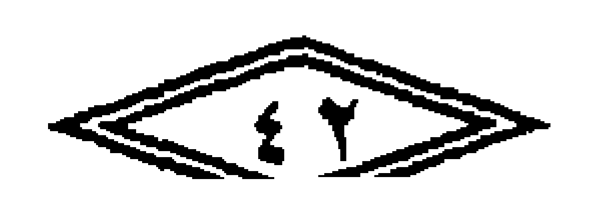
وخسرت مصر تعاطف أبناء الجزيرة العربية معها، فهم لم يعترفوا بالعثمانيين ولا الأرناؤوط، بل ظلت هزيمة الوهابيين فى " الدرعية " ملتصقة بالمصريين إلى زمن



بعيد. لقد رفض محمد على باشا طلبات السلطان بإرسال جيش عثمانى من مصر إلى الحجاز لحرب الوهابية على مدى ثلاث سنوات، إيمانا بأن مصر لا ناقة لها ولا جمل فى هذه الحرب الدائرة ضد الاحتلال العثمانى للجزيرة العربية، ضمن احتلالها لكل الأرض المسلمة. كانت استجابة محمد على لتعليمات الأستانة بإرسال الجيش بعد السنة الرابعة، أمر حياة أو موت بالنسبة له ولمصر.

رأى محمد على بثاقب بصيرته، أن حدود مصر الغربية والجنوبية غير آمنة، فقام بإرسال حملة عسكرية إلى واحة سيوه فى فبراير ١٨٢٠، قابلها الأهالى بالحرب، لكن الجيش المصرى استطاع فتحها وهزيمة الأهالى الذين خضعوا، وطلبوا الأمان واعترفوا بالطاعة والولاء للحكومة المصرية.

أدرك محمد على أن الانجليز هم الأعداء الحقيقيين لمصر، وأن رغبتهم ملحة فى احتلالها بكل الوسائل. فشلت حملة " فريزر " الذى انهزم فى رشيد وطرد من مصر، لكن الانجليز بدأوا فى التخطيط لضرب مصر من جنوبها. تردد فى الأوساط الأوروبية أن الإنجليز يسعون إلى احتلال السودان للضغط على مصر والاتصال بالمماليك الفارين والمقيمين فى " دنقلة " يتحفزون للعودة إلى مصر.

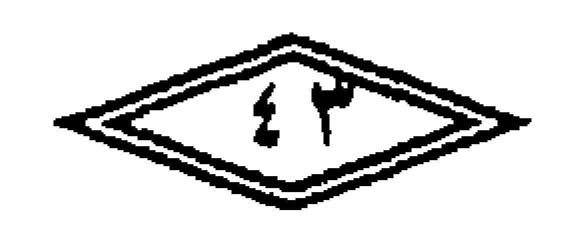


وتواترت الأنباء لدى محمد على باشا بأن السودان منجم خصب للذهب الذى يحتاجه محمد على لنفقات نهضة البلاد التى تدور فكرتها فى ذهنه. وفوق ذلك، فإن منابع النيل التى تغذى أرض مصر تأتى من السودان. وعلم محمد على أن أبناء السودان من المقاتلين الشجعان الذين يمكنهم أن يكونوا نواة لجند نظاميين فى جيش يحلم الوالى بإنشائه.

ظلت أفكار محمد على باشا تدور حول ضرورة استكشاف الأراضى السودانية فيما وراء الشلالات بعد أسوان،فهى الامتداد الطبيعى لمصر جغرافيا وإنسانيا. لم تكن هناك حدود تفصل بين أبناء مصر والسودان. بلد واحد ممتد على طول ضفتى نهر النيل العظيم، يجمع أهلها دين واحد ولغة واحدة وطبائع واحدة. كان محمد على باشا يريد إضافة موارد هذا الأقليم إلى موارد مصر ليحقق وجود دولة قوية فى هذه المنطقة الهامة من العالم.

قرر محمد على باشا، تجريد حملة عسكرية لاستكشاف ما وراء الشلالات وإخضاع القبائل المختلفة التى تعيش فيها إلى سلطة حكمه. بعث إلى بقايا المماليك فى القرى ما وراء الشلال فى أسوان، يطالبهم بالعودة إلى القاهرة ونبذ القتال. رفض المماليك دعوة محمد على وتهديده لهم بالقضاء عليهم إذا لم يعودوا إلى القاهرة.

أعد محمد على باشا جيشين مصريين. الأول يقوده ابنه الأصغر إسماعيل باشا مكون من أربعة آلاف مقاتل وألف



وخمسمائة فارس. والثانى يقوده محمد بك الدفتردار لفتح إقليم كردفان، يضم أربعة آلاف مقاتل. وضمّت الحملة عددا من المشايخ والعلماء، لتفقيه أهل السودان فى الدين الإسلامى.

سار محمد على بهذين الجيشين حتى " إسنا " على متن ثلاثة آلاف سفينة فى نهر النيل، ثم تولت الإبل حمل متاع الجند حتى أسوان حيث أقام الوالى معسكره.

وعاد محمد على إلى القاهرة فى منتصف نوفمبر سنة ١٨١٩، بعدما بدأت الحملتان تحركهما فى أراضى السودان.

سار إسماعيل باشا بجيشه إلى " دنقلة "، حيث تجمع بقايا المماليك، ففتحها وقضى على الكثير منهم، ففر من استطاع الفرار منهم إلى داخل السودان، حيث تعرضوا للنهب والقتل من رجال القبائل السودانية المختلفة. وبهذا تم القضاء تماما على المماليك الذين أشاعوا الذعر فى مصر على مدى مئات السنين، وسلبوا ونهبوا وقتلوا فى المصريين كيف شاءوا،دون رحمة أو شفقة.

مضى إسماعيل باشا فى طريقه وفتح " كورتى " بعد قتال مع قبائلها. أعجب إسماعيل باشا بشجاعة رجالها فى الحرب، فعرض عليهم التجنيد فى جيش مصر فوافقوا، وبعث القائد المصرى بهم إلى أبيه فى مصر ، وواصل الزحف، ففتح " بربر " ثم " شندى" ثم وصل إسماعيل باشا

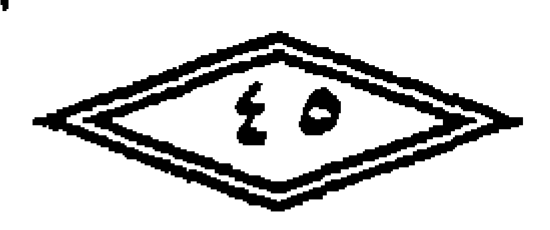
إلى " أم درمان " ثم الخرطوم، وتمكن من فتح مملكة سنار "، التى أسس فيها الحكومة التى تدير شئون الإقليم. استطاع إسماعيل باشا أن يصل بجيشه إلى " فازوغلى ".

اتجه محمد بك الدفتردار صهر محمد على باشا، بجيشه من أسوان، إلى " كردفان " واحتل عاصمة الإقليم " الأبيض " بعد مشقة وجهد عظيم فى قتال القبائل والصراع مع الطبيعة القاسية من قلة الماء وتفشى الأمراض بين الجنود. بعث الدفتردار إلى الباشا الوالى فى مصر، يبلغه أنه لم يبق فى جيشه سوى خمسمائة جندى فقط بعد فتك الأمراض بهم.

قام إبراهيم باشا بالسفر إلى الأبيض بالمدد من الجند والدواء والمؤن وبعض الأطباء. قام بتوزيع الملابس والرواتب على الجنود، وقام الأطباء بعلاج الجنود وإعطائهم الأدوية.

استرد جيش محمد بك الدفتردار عافيته وقوته بعد المدد الذى جاءه من مصر واستعد للتوغل فى الأراضى السودانية لاستكمال المهمة التى كلفه بها محمد على باشا تحت قيادة إبراهيم باشا.

انقسم الجيش المصرى إلى فريقين مرة ثانية. سار إسماعيل باشا بجيشه لفتح الأقاليم الواقعة على النيل الأزرق، بينما اتجه الجيش الثانى بقيادة إبراهيم باشا لفتح الأقاليم الواقعة حول النيل الأبيض. عندما وصل إبراهيم



باشا بجيشه إلى جبل " القربين " للبحث عن الذهب، مرض مرضا شديدا. عاد إلى سنار، ومـنها إلى مصر، تاركا قيادة الجيش إلى محمد بك الدفتردار مرة أخرى.

ثار أهالى " حلفاية " و" شندى " والقرى المحيطة بهما فى وجه السلطة المصرية بسبب المساوئ التى ارتكبها الجنود الأرناؤوط فى تلك المناطق من السلب والنهب والاغتصاب. استطاع إسماعيل باشا أن يخمد تلك الثورة، لكن ملك " شندى " قام بتدبير مؤامرة ضد المصريين بإبداء خضوعه لإسماعيل باشا، ودعاه وقادة جيشه إلى وليمة فى كوخه المصنوع من القش لإعلان خضوعه له، وأسكرهم ثم حرقهم أهالى " شندى " عن آخرهم. مات الابن الأصغر لمحمد على بعد أخيه طوسون باشا. فقد محمد على ثلثى أولاده من أجل مصر حزن محمد على باشا على موت ابنه إسماعيل باشا حزنا شديدا، فبعث إلى محمد بك الدفتردار يأمره بالانتقام من ملك شندى وقومه لهذه المؤامرة الدنيئة التى أودت بحياة إسماعيل باشا وقادة جيشه. سار الدفتردار بجيشه إلى"شندى"، فحرق البلدة وقضى على الثورة بها، لكن ملكها استطاع الهروب إلى داخل الأحراش ولم يظهر له اثر بعد ذلك.

استقرت الأوضاع فى السودان، فقام الباشا بتعيين محمد بك الدفتردار حكمدارا لإقليم السودان، الذى نظمه عسكريا وسياسيا، فجعـل من " الخـرطـوم "، عاصمة للإقليم

وجعل لكل مديرية من مديريات وكيلا للحكمدار يدير شئونها. وضم محمد على باشا تلك الأقليم إلى السلطة المصرية، جزء لا يتجزأ عن مصر.

قام محمد على باشا، بزيارة السودان عام ١٨٣٨، وأمر بإلغاء تجارة الرقيق، كما أمر البكباشى سليم بك قبطان ضابط البحرية المصرية، بإنفاذ حملات لاكتشاف منابع النيل، فقام بثلاث حملات فى منابع النيل، وصل فى أبعد نقطة منها إلى مدينة " غندكرو "، رغم المصاعب الهائلة التى واجهت تلك الحملات، من صعوبة الملاحة فى النيل الأبيض جنوبا لكثرة الشلالات والجنادل من جهة، وشدة فتك الأمراض الإستوائية برجال الحملات.

كانت الحروب الوهابية، وهزائم العثمانيين المتتالية فى الجزيرة العربية وفقدانهم السيطرة عليها، هى بداية إحساس الدول الأوروبية بترهل تلك الإمبراطورية العثمانية التى غزت كل الأراضى الإسلامية واحتلتها وامتصت خيراتها وأذلت شعوبها تحت وهم سلطان المسلمين العثمانى وشعار خليفة المسلمين.

حرضت الدول الأوروبية اليونانيين على الثورة ضد الحكم العثمانى، وأمدوهم بالسلاح لمقاومة الاستعمار العثمانى. عجز السلطان عن مقاومة الثورة اليونانية، فنادى محمد على باشا لإغاثته عام ١٨٢١ فى حرب اليونان. قام جيش مصر بقيادة إبراهيم باشا بالتحرك إلى اليونان،



واستطاع القضاء على الثورة اليونانية، واحتلال المدن اليونانية الواحدة ضد الأخرى.

وقامت ثورة مماثلة لليونانية فى جزيرة كريت، فقام الجيش المصرى وبحريته بالقضاء على تلك الثورة عام ١٨٢١ وإخضاع الجزيرة للحكم المصرى. كان لهذين الانتصارين المصريين الحاسمين، أثر كبير فى تخوف الدول الأوروبية وعلى رأسها انجلترا وفرنسا وروسيا من قوة مصر وكفاءة جيشها تحت قيادة إبراهيم باشا، فدبرت مؤامرة " نفارين " وقضت على الأسطول المصرى برمته. فقد وصل الأسطول المصرى إلى ميناء " نوارين " اليونانى، فترك إبراهيم باشا الخليج فى أيدى الأسطول وسار بجيشه لإخضاع باقى أقاليم اليونان. وانتهز الحلفاء الأوروبيين سفره، فضربوا الأسطول المصرى يوم ٢٠ أكتوبر عام ١٨٢٧ غدرا وأغرقوه، ففقدت مصر أسطولها العظيم الذى أنشأه محمد على بالعرق والإصرار.

كانت نتيجة حرب اليونان، فقدان مصر لأسطولها الكبير، وإدراك السلطان العثمانى محمود أن محمد على باشا، لم يعد واليا على مصر وحسب، بل أنه قائد عظيم لجيش عظيم يقف على قدم المساواة معه. وهو الشئ الذى رسخ فى ذهن والى مصر، بأنه لابد أن يكون لمصر استقلالها عن العثمانيين. واكتسب الجيش المصرى من تلك

الحرب خبرة عظيمة أثبتت أنه قادر على مواجهة أعتى الجيوش الأوروبية تنظيما وتسليحا وتكتيكا.

امتدت حروب مصر بعد حرب اليونان، فدخلت جيوشها فلسطين وسوريا والأناضول عام ١٨٣٢ وهددت عرش السلطان العثمانى، فقام الإنجليز وحلفاؤهم بإثارة أهالى الشام وفلسطين على الحكم المصرى وتحالفوا مع العثمانيين. ودخل جيش مصر بقيادة إبراهيم باشا حرب سوريا الثانية واستطاع هزيمة العثمانيين فى معركة نصيبين عام ١٩٣٨، فرآها محمد على باشا، فرصة مواتيه لكى يعلن استقلال مصر وانفصالها عن الدولة العثمانية.

* * *



6

أيقن محمد على باشا، ان وجود الجند المرتزقة فى الجيش لن يحقق له الطموح الذى يرنو إليه بتكوين مصر حديثة. لن يستطيع جيش من غير المصريين أن يدافع عن استقلال بلده. كانت معركة رشيد التى انتصر فيها شعب مصر ضد جيش الإنجليز، هى الشرارة التى أشعلت فى رأس محمد على ضرورة تكوين جيش مصرى.

اقتضى إنشاء جيش مصرى، أن يفكر محمد على فى كيفية استكمال إعداد ذلك الجيش من بناء مستشفيات، ومصانع للغزل والنسيج لصناعة ملابس الجند، وإنشاء مصانع للذخيرة والسلاح، وإعداد المواد لبناء الثكنات. كانت فكرة إنشاء جيش مصرى هى الطريق لبناء صناعات وطنية مكملة وضرورية لهذا الجيش.

قرر محمد على تنفيذ فكرته بعد انتهاء الحروب الوهابية، لكن الجنود الأرناؤوط والمرتزقة قاموا بفتنة كبيرة عام ١٨١٥ سرقوا ونهبوا فيها المحال المصرية، واستطاع محمد على إنهائها وقام بتعويض أصحاب

المحال المنهوبة. واستطاع محمد على باشا إبعاد أولئك المرتزقة إلى الثغور المصرية موزعين بعيدا عن القاهرة.

اختار محمد على مدينة " أسوان "، بعيدا عن القاهرة، لكى ينشئ بها أول مدرسة حربيه مصرية، وأحاط إنشائها بسرية تامة وبعث إليها بألف من جنوده المخلصين. وكان الكولونيل " سيف " الفرنسى، قد أقام فى مصر ورفض مغادرتها، واسلم متسمّيا بإسم "سليمان ". قرّبه محمد على باشا ومنحه لقب باشا، فعرف بإسم سليمان باشا الفرنساوى، وعينه قائدا للمدرسة الحربية. بذل الرجل جهدا عظيما وإخلاصا وشجاعة لا تبارى أمام تبرّم الطلبة حتى استطاع بعد ثلاث سنوات من توفير ضباط مصريين، نواة جيش مصر العظيم.

قام محمد على بتجنيد ألفى جندى سودانى فى تلك المدرسة بعد توفر الضباط، لكن الأمراض من ضعف بنيتهم وتغير المناخ وعدم قدرتهم على التدريب، جعلت العسكرية المصرية الناشئة تعتمد على فلاحى مصر، من أسوان وفرشوط وبنى عدى، والقيام بتجنيدهم. كان التجنيد للمصريين عن طريق الترغيب. أقيمت لهم ثكنات حديثة. استطاع محمد على فى عام ١٨٢٣ أن يكون لديه ستة لواءات من الجيش النظامى المصرى.

انتقلت تلك اللواءات الستة إلى معسكر الخانكة فى مصر، بعد أن قاموا باستعراض عسكرى فى شوارع



مصر، دعاية للجيش المصرى الجديد مما خلق نوعا من الوعى القومي والفخر بأبناء مصر، دفع الكثيرين إلى طلب الانضمام إلى الجيش.

كان معسكر الخانكة المخصص لنواة الجيش المصرى ملحقا به أول مستشفى عسكرى، التى أصبحت نواة مدرسة الطب. وأنشأ محمد على مدرسة المشاة الحربية، ثم مدرسة أركان الحرب.

نجحت العسكرية المصرية فى عهد محمد على باشا، بالكثير من الصبر والمثابرة وبعد النظر وروية محمد على باشا فى استكمال تكوين جيش مصر، فتم إنشاء مدارس للفرسان، والمدفعية، والمشاة، وأركان الحرب، والموسيقى. وفى نفس الوقت أدرك محمد على باشا، أن البحار التى تحيط بمصر، تقتضى إنشاء أسطول مصرى قوى لحماية شواطئها، فأنشأ المدرسة البحرية بالإسكندرية.

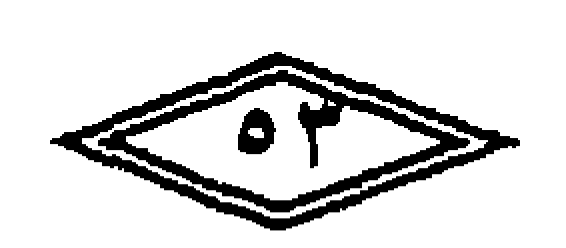
وأدرك الوالى محمد على باشا، أن جيش مصر لن يستطيع مضارعة جيوش الدول الأوروبية قوة وبأسا، إذا لم يعتمد على نفسه فى توفير احتياجاته من السلاح. قام بإنشاء مصانع للأسلحة والمدافع فى القلعة، وأنشأ مصنعا لصب المدافع وصناعتها، وآخر لصناعة البارود والقنابل. كان كل عمال المصانع من المصريين.

لم يكتف محمد على باشا بذلك، بل قام بترميم جميع قلاع مصر وحصونها وإصلاحها، وإعادة تسليحها وتخزين

مؤنها وذخيرتها، استعدادا لكل هجوم قد يأتى على مصر. كانت الحملة البريطانية الفاشلة التى قام بها " فريزر " لاحتلال مصر، لا تختفى من مخيلة محمد على، يشعر فى قراره نفسه بأن الإنجليز لن يملوا اتباع كل السبل من أجل احتلال أرض مصر العزيزة.

آمن محمد على باشا، بأن جيشا بدون أسطول بحرى، كالمحارب بيد واحدة لا يستطيع الدفاع أو الهجوم بفاعلية. وأيقن أن عدم وجود أسطــول بحرى سوف يجعل جيش مصر محصورا داخل حدوده. كان قراره أن يبنى اسطولا مصريا قويا، وهو الذى عرف فوائد وجوده فى الحروب الوهابية. قام محمد على باشا بشراء بعض السفن الحربية الأوروبية، والاتفاق مع فرنسا وإيطاليا على بناء سفن أخرى للأسطول المصرى. استعان محمد على بضابط فرنسى"سيريزى " أبدى إخلاصا لمصر، بالإشراف على بناء السفن الحربية التى يتم بناؤها لمصر فى الموانئ الأوروبية.

جاءت واقعة " نوارين " وتحطم الأسطول المصرى. وقابل محمد على باشا تلك الكارثة بشجاعته المعهودة، وقرر أن تقوم مصر ببناء أسطولها الجديد بأيدى مصرية وفى ميناء الإسكندرية وعدم التعاون مع فرنسا فى ذلك وهى التى اشتركت فى تدمير أسطول مصر مع الإنجليز والروس.

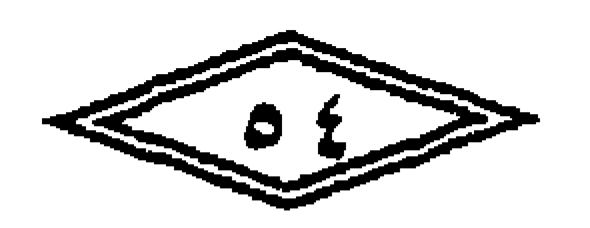


استدعى محمد على باشا، المهندس " سيريزى " ومنحه لقب بك وطلب منه البدء فى إنشاء الترسانة المصرية بالإسكندرية. استعان الفرنسى المتمصّر، بالحاج عمر أحد أمهر المصريين فى بناء السفن بالإسكندرية، الذى جمع عماله حوله. خصص محمد على الأرض الفضاء حول الترسانة الصغيرة الموجودة، وتمت عملية تعميق ميناء الترسانة وإقامة مدارج إنزال السفن إلى الماء، وأحواض البناء والإصلاح.

أنشأ "سيريزى بك" والحاج عمر، ورشا وأقساما ومعهدا لتعليم الصبيان فن بناء السفن وإصلاحها، وإنشاء مصانع تكميلية لاحتياجات السفن. ولم يتوان محمد على باشا فى تحقيق حلمه، بل سارع خلال فترة إنشاء الترسانة وبناء السفن الحربية إلى إرسال بعثات من المصريين لدراسة الهندسة البحرية وفنون الحرب البحرية.

وقام محمد على بإنشاء معسكر بحرى، ثم مدرسة بحرية، وإصلاح ميناء الإسكندرية وإنشاء حوض جاف لإصلاح السفن. وكان من بين أعماله البحرية العظيمة، إنشاء فنار الإسكندرية، استكمالا لتلك النهضة البحرية.

أصبحت الترسانة المصرية، مفخرة لجيش مصر، واستطاعت بناء سفن الأسطول المصرى الجديد ببوارجه الضخمة وفرقاطاته وسفنه المساعدة، بإتقان وكفاءة تضارع أرقى الدول فى بناء السفن. وقد أبغض ذلك النجاح

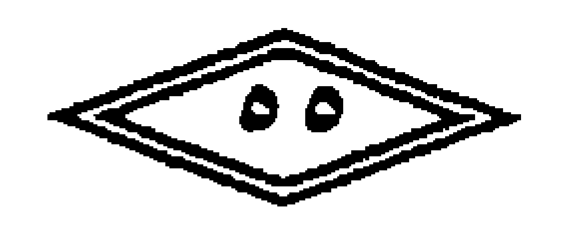


المرموق قلوب الأوروبيين، فقام العمال المالطيين العاملين فى الترسانة، بالدس لسيريزى بك ومحاولة تعويق نتائج عمله، فاستقال الرجل من عمله وترك مصر، فأبعد محمد على باشا العمال الأجانب عن الترسانة، التى أصبحت مصرية خالصة، تتبع قيادة أسطولها العظيم.

أتت سياسة محمد على باشا فى تكوين الجيش المصرى بثمارها فى فكره وتخطيطه. عرف أن التعليم والخبرة العملية ضرورة من أجل التقدم. عرف محمد على باشا كيف يبدأ خطة نشر التعليم فى مصر. بدأ بالقيادة التى يجب تعليمها وتدريبها، لكى تصبح قادرة بدورها على نشر التعليم بين الآخرين.

كان الأزهر الشريف هو الموئل، بما لدى خريجيه من معرفة بالعلوم والثقافة. اختار من بين طلبتهم عددا، بعث بهم إلى فرنسا وإيطاليا وانجلترا للتعلم فى مختلف فروع المعرفة، ومع كل مجموعة مترجم يقوم بنقل الدروس إليهم. وقد عاد هؤلاء الدارسين بعد انتهاء تعليمهم إلى مصر لتنفيذ خطة التعليم التى وضعها محمد على باشا لأبناء مصر.

وفى الوقت الذى كانت البعثات المصرية تتعلم فيه فنون الصناعة والمعرفة بالدول الأوروبية المختلفة، كان محمد على باشا ينشئ فى القلعة، أول مدرسة للهندسة عام ١٨١٦



واستعان فيها ببعض المهندسين الأجانب. وكانت تلك المدرسة هي نواة إنشاء مدرسة المهندسخانة في بولاق.

كما استعان محمد على باشا، بالطبيب الفرنسي "كلوت بك " في إنشاء مدرسة الطب في مصر عام ١٨٢٧ واستعان فيها بخبرة الأساتذة الأوروبيين ومعظمهم من الفرنسيين. . وقد قام محمد على باشا بإرسال أوائل الخريجين المصريين في مدرسة الطب إلى فرنسا لاستكمال دراستهم العالية هناك.

وأنشأ الوالي مدرسة للصيدلة، وأخرى لتخريج الممرضات والقابلات. كما آمن محمد على باشا بضرورة وجود فئة تجيد اللغات الأجنبية، فقام بإنشاء مدرسة الألسن لتعليم اللغات الأجنبية. ثم استمر محمد على باشا في سياسته التعليمية بإنشاء مدارس للفنون المختلفة والزراعة وغيرها. وعندما انتشر التعليم واتسعت آفاقة في مصر، إنشأ محمد على ديوانا خاصا للمدارس للإشراف على التعليم في مصر.

* * *

7

جلس أستاذ التاريخ، واضعا رأسه بين يديه. سأله طلبته إن كان يحس بألم أو مرض، فقال لهم:

- إننى بصحة جيدة والحمد لله. إنما هى لحظة للفكر والتأمل وحسب.

قال أحد تلاميذه:

- لم تحدثنا يا أستاذ عن الحروب التى خاضتها مصر فى اليونان والشام والأناضول.

ابتسم المدرس وقال:

- تلك الحروب هى سيرة ذاتية لإبراهيم باشا، أعظم قائد عسكرى شهدته حروب تلك الفترة من التاريخ. كان اسمه يثير الذعر فى قلوب أعدائه، وكان وجوده وسط جنوده كفيل بانتزاع النصر لجيشه وسط أى ظروف معاكسة.

قال تلميذ آخر:



- لم تحدثنا يا أستاذنا عن كل أعمال محمد على وما انتهى إليه حكمه.

قال الأستاذ:

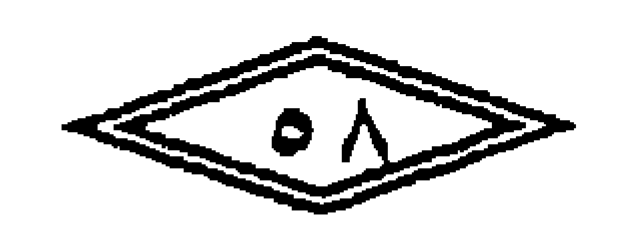
- هل تتصور يا بُنى أن الفترة التى حكم فيها محمد على مصر، وانتقل بها من ولاية عثمانية تابعة ليس لها سوى إرسال الخراج إلى السلطان وإرضاء الولاة والخضوع لجبروت المماليك والعثمانيين ومواجهة الغاصبين الأجانب، إلى دولة حديثة يعمل لها حساب من جانب أقوى الدول، موضوع بسيط يمكن إجماله فى حديث سريع؟

بانت الدهشة على وجوه الطلبة، فابتسم لهم مدرسهم وقال:

- كانت قوة مصر فى أواخر عهد محمد على باشا مبعث خوف من دول أوروبا وخاصة إنجلترا، بعد أن فرض محمد على على السلطان العثمانى استقلال مصر. ظلت تدبر المؤامرات والتدخل عسكريا فى أقاليم الدولة العثمانية ضد المصريين، وفرض المعاهدات الدولية والقيود على مصر خلال تلك الفترة من التاريخ.

صمت المدرس لحظة. ثم قال:

- سوف أحدثكم بإذن الله عما قام به محمد على باشا من أعمال جعلت من مصر دولة حديثة، انتقل بها من



عصر يعتبر من أظلم عهودها، إلى عصر عُدّت مصر فيها من أرقى الدول فى عالم تلك الفترة الزمنية.

قال أحد الطلبة يسأل أستاذه:

- ألم تكن لمحمد على باشا أخطاء خلال فترة حكمه؟

قال المدرس:

- الحكم بالخطأ أو الصواب هو مسألة نسبية بحته. هل نحكم بذلك عند نهاية الفترة وما حققتها الأعمال؟ أم نحكم على الأعمال خلال فترة التطبيق؟ إنها مسألة نسبية كما قلت لكم،سوف نعالجها بإذن الله أثناء سرد تاريخ الفترةوعليكم أنتم أن تحكموا على أعماله بالخطأ أو الصواب. لاشك أن الحكم على فترة حكم محمد على باشا بمجملها تُظهر مدى ما بذله هذا الرجل العظيم من أجل الأرض التى احتضنته، بعدما أحبها وأحب شعبها وضحى بأولاده فى سبيل حريتها ورفعتها.

ابتسم المدرس وقال:

- أعرف أنكم تحبون مصر، وتريدون معرفة تاريخها وكفاحها على مرّ الأزمان. فلا تتعجلوا سوف نزور فى المرة القادمة ترسانة الإسكندرية، تلك التى وضع محمد على باشا أساسها ولازالت قائمة حتى الآن بعد تطويرها. سوف استكمل معكم تاريخ محمد على حتى موته. فإلى المرّة القادمة إن شاء الله.



المـــراجـــع

١- **كتاب (تاريخ محمد على):** للمؤرخ المصرى العظيم عبد الرحمن الرافعى.

٢- **كتاب (تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار)** للمؤرخ المصرى العظيم عبد الرحمن الجبرتى.

